الاستاذ الدكتور محمد نجيب مراد

في ذكرى الرسول العربي(ص)
الإسلام و الغرب: صدام حضارات أم رسالات

هي موجة جديدة من **الاسلاموفوبيا** تجتاح مرة أخرى فرنسا وغير دولة في الغرب الأوروبي والأميركي , هذه الاسلاموفوبيا كانت ترجماتها وتعبيراتها متعددة الآليات والوسائل , لكنّها في كل حركتها كانت تنمّ عن أزمات مخزونة في الذاكرة الثقافية الغربية تجاه الشرق الاسلامي وبصورة خاصة تجاه الرموز التاريخية البارزة في الوطن العربي بوصف هذا الأخير يبقى الشاهد الدائم على احتضان حركة الاسلام جغرافية ودعوة ورسالة . فالرسول الأكرم محمد بن عبدالله (ص) هو عربي الانتماء والهوى والبيئة الحاضنة للرسالة السماوية التي بشّر بها , والتي لم تكن ليكتب لها النجاح والانتشار لو لم تتحوّل الى خصوصية عربية في الأساس , حيث حملها العرب في وجدانهم الفكري والثقافي وارتقوا بها **حركة عربية – انسانية هي بمثابة رسالة حياة الى غير أمة أو جماعة في العالم .**

أما وقع الرسالة العربية – الاسلامية على الغرب بدائرتيه الأوروبية والأمريكية فكان أقرب الى الصدمة منه الى التفاعل الايجابي معها , فقد ظلّ ينظر اليها من زاوية الاختلاف الحضاري المحكوم بنزعات التغلب والسيطرة والاحتلال والاستعمار من أجل تسييد الغرب على حكم العالم .

تسعى هذه الورقة البحثية الى تناول العلاقات التاريخية المأزومة بين عالمي الغرب والشرق العربي – الاسلامي في محاولة لاستقراء العوامل الحاملة أو الدافعة لتلك الأزمة المتجددة , وهي أزمة لم تعرف بعد, منذ ما قبل ظهور المسيحية والاسلام بقرون عديدة وحتى اليوم ,

الانفراج وسيادة السلام في علاقات العالمين المذكورين . إذ أنّ فترات الانفراج التي كانت تظهر على السطح بينهما بين الحين والاخر , انّما هي فترات كانت محكومة الى الظرفية الأقرب الى الهدنة منها الى الديمومة التفاعلية في حركتها الخطية المستمرة .

كثيرة هي المقولات الثقافية الغربية التي ظهرت في غير مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة ظلت أسيرة دائما لعملية إسقاط أيديولوجي ديني ثقافي عرقي وحضاري مدفوعة غالبا بمنهجية تبريرية تعطي الغلبة والتفوق لعالم الغرب مانحة إياه " حق " السيطرة والتدخل في شؤون الشرق العربي – الاسلامي وتبرير الذرائع لترويضه ثقافيا وحضاريا وضبط سلوكه وحركته السلبية الناشئة كردات فعل على استبداد عوامل التخلف به , والتي باتت بحسب مزاعم المؤدلجين الغربيين , سببا من أسباب اندفاع الشرقيين المسلمين بعامة , والعرب المسلمين بخاصة , نحو سلوكيات معادية للغرب , والحذر من مخططاته الهدامة تجاههم .

تحاول هذه الورقة أن ترصد القانون التاريخي أو مجموعة القوانين التاريخية التي حكمت مسار العلاقة بين الغرب المسيحي – الرأسمالي – الاستعماري – الأمبراطوري من جهة, والشرق الاسلامي والعربي خصوصا المتميز بأهمية استثنائية على مستويات ثلاثة: جيو– استراتيجية , جيو–اسلامية وجيو– ثرواتية (بترولية) من جهة أخرى .

تكمن مقاربة الحالة العدائية للغرب تجاه العرب والمسلمين عموما من خلال الوقوف على المخزون التاريخي للثقافة الغربية التي تبقى تمثل مفتاح المعرفة الحقيقية لفهم خلفية العداء المتراكم تجاه العالمين العربي والاسلامي , وبيان الشواهد الداحضة لأسبابه , ونفي المقولات عن إرهابية الاسلام , والتي تغالي في وصفه بالرجعية ومعاكسة التقدم .

إنّ رصدا موضوعيا لمسار العلاقات التاريخية بين الغرب والاسلام يظهر بسهولة أنّها كانت تسير باتجاهين متعاكسين تماما : اتجاه اسلامي قيمي تسامحي سعى الى تعميم رسالة العدل

الاجتماعي والقيم الانسانية والحضاريةالى الغرب وسائر العالم , واتجاه أخر غربي اختراقي إلغائي سعى دائما الى طمس الهوية الحضارية للعالمين العربي والاسلامي والى اخضاعهما وتوظيفهما لحساب مصالحه وسياساته .

من الانصاف التاريخي القول أنّ عدائية الغرب تجاه الشرق العربي بصورة خاصة كانت سابقة على ظهور الاسلام , فهناك الاجتياحات الغربية اليونانية والرومانية التي سبقت ظهور المسيحية نفسها بقرون عديدة , والتي جعلت من بلدان الشرق العربي بصورة خاصة جزءا ملحقا وتابعا لامبراطورياتها القديمة . غير أنّ ظهور الاسلام مع مطالع القرن السابع للميلاد كان بمثابة القوة الحضارية الدافعة للشعوب التي اعتنقته وراحت توسّع من دائرة انتشاره كرسالة تحاكي حضارة الشعوب الأخرى غير العربية بهدف مدها بعناصر التطور الاجتماعي والحضاري والانساني . فقد بدأت , مع ظهور الاسلام , تتعزز لدى الغرب فكرة **الاسلاموفوبيا التي راحت توصّف الاسلام بالدين غير المسالم والمخزون بالعداء للمصالح الغربية , ومن ثمّ لرسالة الرجل الأبيض التي طبعت الحركة الاستعمارية الأوروبية التي تكثّفت خلال القرن التاسع عشر , والتي اتخذها الغرب يافطة لتسويق الحضارة الأوروبية والغربية عموما , ولكنها في الواقع كانت تخفي مطامع استعمارية قائمة على الاخضاع والهيمنة على الشرق العربي – الاسلامي وإبقائه ملحقا طرفيا على هامش الغرب المتطور والمتقدم .**

ثمة تهمة تاريخية يلصقها الغرب دائماً بالمسلمين عموماً وبالعرب منهم خصوصاً، وهي تهمة التخلف والإرهاب والعداوة الدائمة للحضارة، على قاعدة هذه النظرة الاتهامية كانت التعبئة الغربية لهجمات مستمرة على بلاد المسلمين بهدف اختراقها أو السيطرة عليها. فالحروب الصليبية مثلت أحد أبرز الاختراقات الغربية الأوروبية للشرق المسلم تحت يافطة إنقاذ المسيحية وتخليصها من براثن الجهل والتخلف. فالهدف الأول لتلك الحروب كان في أحد دوافعه

الأساسية محاولات الغرب للتصدي للثقافة العربية – الإسلامية ومحاصرتها وتفريغها من مضامينها القيمية والحضارية الإنسانية التي اكتسبتها من الإسلام نفسه.

إنَّ بحثاً عميقاً في دوافع الاستعداد الغربي الدائم لاختراق الديار الإسلامية يُظهر أن المحرك الأبرز لذلك الاستعداد يكمن أولاً وأخيراً في أزمة الغرب الدائمة في التاريخ. فقد عرف الغرب، منذ الألف الأول للميلاد، على الأقل، أزمة الكنيسة التي اندفعت وراء سلطتها الاستبدادية على مؤمني أوروبا , إلى نقل أزمتها إلى الشرق بهدف إبعاد القوى الاجتماعية والسياسية المعارضة لها في الداخل الأوروبي. من هنا كانت الحروب الصليبية كوسيلة ناجعة من وسائل تصدير الأزمة إلى خارج أوروبا. ومع تنامي الرأسمالية الغربية في أعقاب الثورة الصناعية وجدت هذه الرأسمالية في اللجوء إلى الحروب على أنها أفضل السبل للخروج من الأزمات المتلاحقة. فالرأسمالية الغربية الأوروبية والأميركية كانت تبحث دائماً عن منافس تحت ضغط أزماتها المستمرة، فالحروب الأوروبية بعد الثورة الفرنسية وصولاً إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية، كلها حروب كانت من تدبير الرأسمالية على الرأسمالية دفعت البلاد الإسلامية والعربية تحديداً الثمن الباهظ لنتائجها.

مع نهاية الحرب الباردة في أعقاب السقوط السوفياتي في تسعينيات القرن الماضي (القرن العشرين)، ومع دخول رأسمالية المركز الأميركي عصر العولمة – عصر الأحادية القطبية – راحت تبرز ثقافة القوة المؤدلجة في علاقات الغرب بالشرق الإسلامي. ارتكزت القوة الأميركية المؤدلجة إلى عناصر ثلاثة: المعرفة التكنولوجية، الاقتصاد الرأسمالي والصناعات الحربية. شكلت هذه العناصر المرتكزات الاستراتيجية للسياسة الخارجية الأميركية في نظرتها للعلاقات الدولية، وبالأخص في نظرتها إلى عالمنا العربي الإسلامي الذي قُصد ابتزازه ليكون

أكثر تجاوباً مع ما تفرضه ثقافة القرارات الدولية، وهو ما جعله مرغماً على تبرير وتخفيف لهجة مواجهاته، بعد أن غدا متهماً زوراً "باغتصاب أمن العالم".

يقدِّم هنري كيسنجر – المهندس الاستراتيجي للسياسة الخارجية الأميركية – نموذجاً تحريضياً صارخاً لتحشيد الاستعداء الغربي على الإسلام. ففي خطاب له أمام المؤتمر السنوي لغرفة التجارة الدولية عام 1990، قال: "إنَّ الجبهة الجديدة التي يتحتم على الغرب مواجهتها هي العالم العربي _ الإسلامي، باعتبار هذا العالم هو العدو الجديد للغرب. أما أمين عام حلف شمال الأطلسي (الناتو) "ولي كلايس" فقد قدَّم صورة أكثر عدائية تجاه الإسلام قائلاً: "لقد حان الوقت الذي يجب علينا فيه أن نتخلى عن خلافاتنا وخصوماتنا السابقة وأن نواجه العدو الحقيقي لنا جميعاً وهو الإسلام، وأنّ الأصولية الإسلامية هي، على الأقل، في مستوى خطورة الشيوعية".

في عصر العولمة الراهن باتت تشهد الولايات المتحدة تحولات كمية ونوعية تتمثل بانتقالها من دولة الامبريالية التي برزت في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى امبراطورية الامبريالية في ظل الشركات القطبية المتعددة الجنسية المسيطرة على العالم اليوم. مع امبراطورية الامبريالية باتت الشركة أو مجموعة الشركات العملاقة تتحكم في السياسة والاقتصاد والمجتمع. ومع هذه الشركات تحولت الدولة إلى مجرد وسيلة في خدمة المراكمة الرأسمالية القائمة على نهب ثروات العالم ومصادرة إرادة الشعوب. فالامبراطورية الأميركية في عصر العولمة لا تختلف عن سمات الامبراطوريات المتسلطة السابقة في التاريخ إلا من حيث التسميات والتصورات، وهذا ما عكسه "توني بلير" – رئيس الوزراء البريطاني – بقوله: "فلنعد ترتيب العالم من حولنا" ليعقبه الرئيس الأميركي "جورج بوش الابن" بالقول "إننا نركز على أفغانستان ولكن المعركة أوسع". وهنا يكمن التركيز الغربي لا سيما الثنائي الانكلوسكسوني على

منطقة الشرق الأوسط ذات الحضور الإسلامي الغالب، وذلك لجهة اعتبارها المدخل إلى الامساك بالعالم كل العالم.

باتت السياسة الأميركية بقيادة المحافظين الجدد بمثابة رأس الحربة في عدائها للعالم الإسلامي عموماً والعربي منه خصوصاً. وقد ارتكز هؤلاء المحافظون إلى خلفية ايديولوجية ذات أبعاد ثقافية وفكرية مغلفة بنزعة إيمانية مسيحية تنشد المغالاة والتطرف في معتقداتها بهدف خلق الذرائع والمبررات لأدائها السياسي، في ضوء هذه الخلفية الاعتقادية للإدارة البوشية راح جورج بوش الابن يقدم تبريره للحرب التدميرية على أفغانستان والعراق معلناً بأن ذلك ينسجم مع "العناية الالهية" التي كلَّفت الأميركيين بتطويع العالم وضبطه بما في ذلك اللجوء إلى الحرب "الاستباقية" التي احتلت الأولوية بين وسائل الإخضاع الأخرى لاحتلال أفغانستان عام 2001 والعراق 2003. فقد قال بوش في احدى خطبه: "لقد دعا التاريخ أميركا وحلفاءها للعمل. فأصبح من مسؤوليتنا ومن حقنا خوض حرب الحرية".

إنَّ البروتستانتية المتطرفة التي تحكم سلوك المحافظين الجدد في إدارة البيت الأبيض اليوم ليست سوى الوجه الآخر لنزعة التفوق في التوراة اليهودية، والتي تزعم بأن اليهود هم شعب الله المختار، وهم المكلفون إلهياً بحكم العالم وقيادته. تقاطعت البروتستانتية المتطرفة مع التوراتية اليهودية وتحولت معها الأيديولوجية الأميركية الجديدة إلى عصبية دينية كانت وراء التوجهات السياسية لإدارة جورج بوش الإبن في مشروعه الشرق أوسطي الجديد الذي يهدف من بين ما يهدف إلى إلغاء الهوية الإسلامية كهوية تاريخية للمنطقة والترويج لهوية بديلة شرق أوسطية تستطيع معها الهوية الصهيونية أن تفوز بالتفوق والغلبة.**إنّ مسلسل التطبيع المتسارع اليوم بين دول عربية عديدة مع الكيان الصهيوني , فهو إن دلّ على شيء فانما يدل أكبر خطر يطال الهوية العربية بخصوصيتها القومية والاسلامية , وهذا ما يشكّل استهدافا غير**

مسبوق لهذه الخصوصية في ظل تسويق لهوية صهيونية وتقديمها كهوية لها حضورها في إقليم شرق أوسطي بديل لاقليم قومي عربي ظلّ طويلا يحافظ على مقوّمات تشكّله عبر التاريخ .

يخطئ من يعتقد أنَّ التوترات الحاصلة في علاقات الغرب المسيحي بالشرق العربي – الإسلامي هي توترات ناجمة عن صراعات خفية مسيحية – إسلامية. إنَّ مثل هذا الاعتقاد منافٍ للحقيقة. فالمسيحية والإسلام كلاهما نبت في التربة المشرقية والعربية تحديداً، وتفاعلا مع بيئتها تأثيراً وتأثراً، وكانت المسيحية العربية أكثر حماساً في استقبالها للإسلام حين ظهوره بعدها بأكثر من ستة قرون، وقد شكلت معه النواة الأولية للجماعة العربية التي ما برحت تتعاظم حجماً وقوة باتت معهما قادرة على التبشير برسالة حضارية إنسانية، فكانت معها الفتوحات العربية – الإسلامية لا لتنحصر في دائرة محدودة جغرافياً، وإنما اتسعت لتصل إلى غير مدينة أوروبية، إلى تور في فرنسا، والبندقية ونابولي وجنوى في إيطاليا، وفيينا عاصمة النمسا، والأندلس في إسبانيا. أما الدليل الثابت على أنسنة هذه الرسالة فهو ما تركته من آثار ما زالت ماثلة في الزخارف، والنقوش، وفنّ العمارة، وقيم الأسرة، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر، بل أكثر من ذلك، أن التاريخ الأوروبي لم ينعت أبداً الوجود العربي – الإسلامي في أوروبا بالاستعمار أو الاحتلال، عكس ما فعله الأوروبيون ومن ثم الأمريكيون مع الشرق العربي – الإسلامي حيث أمعنوا فيه تجزئة وتفتيتاً واحتلالات لم تتوقف، وهم الذين هيأوا الظروف ودمروا المعطيات لزرع الكيان الصهيوني الاستيطاني في فلسطين وشردوا أهلها في الشتات وما زالوا حتى اليوم الظهير الداعم لإسرائيل على حساب الحق العربي – الإسلامي في فلسطين والمنطقة العربية عموماً. ثمة دليل على مدى الانحياز الأميركي لإسرائيل عسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً، يكمن في موقف الولايات المتحدة الرافض بقوة لمعظم القرارات الدولية المؤيدة للفلسطينيين. ففي الفترة بين 1983–2001 هناك 18 قراراً دولياً أصدرها مجلس الأمن

الدولي تدين إسرائيل وممارساتها العدوانية ضد الشعب الفلسطيني , وكذلك تعديها على الحقوق العربية، قامت أمريكا باستخدام حق النقض (الفيتو) لتعطيل كل هذه القرارات. هذا، بالإضافة إلى 10 قرارات أخرى امتنع فيها الممثل الأميركي عن التصويت.

إنَّ السياسات القهرية والنهبية التي انتهجتها غير دولة غربية مع المنطقة العربية – الإسلامية، تتحمل وحدها المسؤولية الكاملة عن السلوك السياسي المقرون، أحياناً كثيرة، بردات فعل عنيفة من قبل الحركات العربية – الإسلامية التي را حت تواجه الغرب وتقاوم سياساته العدائية بحثاً عن الاستقلال والحرية.

إنَّ المقولة الغربية الزاعمة بأن الصراع بين الغرب المسيحي والشرق العربي – الإسلامي هو صراع حضاري لا تلامس الموضوعية ولا تجانب الحقيقة، وما يؤكد عليه "هانتغتون" في كتابه "صراع الحضارات" هو في حقيقته فعل ممارسة لقوى الغرب على الشرق وإخضاعه لمزيد من السيطرة وفرض وجهات نظره عليه. إنَّ ما نشهده اليوم ليس صراع حضارات، بل هو فرض حضارة على أخرى، وما ينجم عن ذلك من مقاومة. إنَّ ما تشهده علاقات الغرب بالشرق اليوم يندرج ضمن حركة العداء التاريخي ونزعة الغلبة والسيطرة التي تميز بها سلوك الغرب الدائم تجاه الشرق. إن حركة العلاقات المشار إليها تخضع لقانون تاريخي يتمثل بصدام الرسالات وليس صدام الحضارات.

ثمة مجموعة من الحقائق تُوصِّف واقع العلاقة الراهنة بين الغرب والشرق العربي – الإسلامي وهو واقع يتسم بالعجز العربي _الإسلامي مقابل احتفاظ الغرب بمقومات التفوق والغلبة. أبرز هذه الحقائق:

الحقيقة الأولى: الخلل في التزام المسلمين بالمنهج الإسلامي، فالإسلام إما معطّل أو مشوّه ومخترق. فهناك إسلام في النصوص ولكن لا يوجد مسلمون يلتزمون التطبيق.

الحقيقة الثانية: سيادة أنماط الرأسمالية الغربية من أجل الاستهلاك المحلي في غير دولة عربية أو إسلامية، الأمر الذي يشيع ظاهرة التواكلية في الاعتماد على الغرب ويفسح له المجال في الاختراق والتدخل.

الحقيقة الثالثة: تطور ثقافة اللاإنتماء إلى أمة واحدة. فهناك المذهب والفئة والعرق في مواجهة الأمة.

الحقيقة الرابعة: النخب الحاكمة هي نخب مقلِّدة للنماذج الغربية، وتابعة سياسياً واقتصادياً وثقافياً للغرب وأفكاره.

الحقيقة الخامسة: سياسة التراخي المعتمدة من قبل أنظمة الحكم العربية والإسلامية القائمة تجاه التعامل مع سياسات الاختراق الغربي للمجال العربي – الإسلامي في كل شؤونه الإقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والأمنية.

ليس هنالك من إمكانية عند العرب المسلمين من تجاوز حالة العجز المشار إليها إلا من خلال التمسك بثوابت الإسلام الحقيقية والصحيحة لبناء عالم خالٍ من العدوانية، يكون العدل فيه المرجعية المعوَّل عليها لترشيد وضبط سلوك الدول والأفراد في مواجهة دعوات الانحياز والتمايز والفوقية، تلك المنتشية في مناخ غطرسة القوة.

إنَّ واقع المسلمين اليوم، وفي ظل العجز الذي يحكم تفاعلهم مع باقي العالم سواء على مستوى المواجهة مع قوى الغطرسة المادية المتمثلة برأسماليات المركز الأميركي – الأوروبي أم على مستوى الفعل الثقافي الحضاري مع سائر بلدان وشعوب العالم الأخرى. هذا الواقع الراهن للمسلمين عموماً والعرب خصوصاً يضعهم على مفترق طرق حاسم: فإما الخروج من التاريخ، وإما الاستجابة في ردهم على التحديات التي تهدد مصيرهم. ان شروط الاستجابة العربية –

الإسلامية فإنما تكون باستلهام المضامين الجوهرية للرسالة الخالدة في تأكيد مساهمتها الفعّالة في بناء حضارة إنسانية تُراعى فيها خصائص الشعوب والأمم، مع تبيان أنَّ ذلك لا يتم عبر تأجيج الصراعات أو اعتماد أساليب وافدة من أرحام إمبراطوريات مُهرت بالتسلط وبنهب ثروات الشعوب وتدمير مقومات مستقبلها.

إنَّ تجديد الإسلام القيمي الرسالي بات أكثر من ضرورة وحاجة ملحّة ليس فقط إلى العرب والمسلمين وحسب، وإنما أيضاً إلى سائر شعوب العالم عموماً والشعوب الغربية خصوصاً من أجل أنسنة العلاقات العالمية وفقاً لنظرة معيارية قوامها التكافؤ والعدالة والقيم الإنسانية الثابتة.

يمر العرب والمسلمون اليوم في ادقّ مراحل تاريخهم من خطورة غير مسبوقة على هويتهم كجماعة تاريخية لها خصوصياتها في التشكّل التاريخي الاجتماعي والثقافي والحضاري . أبرز التحديات الضاغطة ليست تلك البادية من تصاعد الاسلاموفوبيا في غير دولة غربية أوروبية وأمريكية , وانما في الاحتلالات والتدخلات العسكرية والسياسية والحصارات الاقتصادية وفي الوقوف وراء الحروب الأهلية التي ما تزال ساخنة وملتهبة في معظم الأقطار العربية , هذا في وقت يجري فيه تعزيز قدرات العدو الصهيوني من خلال صفقة القرن الأمريكية التي تتضمن الغاء لعروبة القدس ولطابعها العربي التاريخي كنقطة ارتكاز للتفاعل بين الاسلام العربي والمسيحية العربية في انتمائهما الى الدائرة القومية الواحدة .

خلاصة :

إنّ الاحتلالات والتدخلات الغربية تهدف الى إحداث تغييرات جوهرية في بنية النظام العربي – الاسلامي من خلال تسييد وتقديم الكيان الصهيوني من جهة , ورسم خرائط جديدة لجغرافيات سياسية متعددة وعلى أسس مذهبية وطائفية وعرقية ومناطقية من جهة أخرى .

تفرض التحديات المشار اليها وجوب استلهام الشخصية المحمدية في ذكرى مولدها الشريف , من حيث هي شخصية شكّلت ظاهرة تاريخية في حركتها الانقلابية التغييرية التي نقلت العرب من حالة التشتت القبلي والتخلف الى مجتمع موحد ومتماسك , والى تطوير فعاليات أمة وصفت على أنها خير أمة اخرجت للناس لما حملته الى العالم من رسالة قيمية وانسانية ومن ترسيخ لمفاهيم العدالة الاجتماعية وبناء علاقات تبادل وتفاعل ايجابي بين سائر أمم وشعوب العالم .

على موازاة استلهام الشخصية المحمدية يتوجب تلمس الخطوط الكبرى لمشروع نهضوي عربي – اسلامي يتمتع بالقدرة على تأسيس حالة عربية – اسلامية قادرة ليس فقط على ممانعة الاحتلالات والتدخلات والاختراقات الخارجية ومقاومتها , وانما أيضا على جعل الاسلام القيمي الرسالي الانساني مرجعية مركزية على مستوى العالم بأسره .

معالم الحضارة الاسلامية